رأي في الغزالي

لحسن أنيس

فكرة

اذا صدق أن يطلق على الآراء المفردة وعلى الخطرات العقلية الموزعة ، بل ان صح أن يطلق على التشبث بالعقائد والتعلق بها في رضى الايمان والتسليم وفي حرارة المدافعة بالدليل الجدلي ، والبرهان المنقول ، وتلقي الاشراقات والفيوض — ان صدق الفكر على هذا فالغزالي مفكر بل مفكر من الطراز الأول اضاف الى تراث الانسانية الروحي قدراً من المعرفة تفيد دراسته الفكر فائدة محققة

أما ان كان شرط الفيلسوف أن تجمع بين جملة نتاجه العقلي ، جامعة تنتظم كل أنظاره في صورة من صور الوحدة النظرية ، التي تشمل دراسة الوجود وما وراء الوجود وما يقع بينهما من علائق مادية ، ونسب نظرية ، على نحو تتساوق فيه تمهيدات يتأدى عنها غايات ، وتجري فيه المقدمات على نمط من أنماط البحث يتصل بها وعنها نتاج فيه لون من ألوان الابداع العقلي يشهد لصاحبه بطرافة النظرة واصالة الرأي . . . .

اذا كان هذا ما يميز الفيلسوف من مجرد المفكر فان اضافة تسمية فيلسوف الآن الى الغزالي حكم سابق لتصنيف البحث العلمي ويستبد بالنظر الفلسفي . ودلالة هذا أننا لا نعرف بحثاً بعينه حاول درس الغزالي على هذا النحو فدل على مناهج تفكيره بل دل حتى خصائص نظرية وحدود وصور مذهبية تكشف عن قوام عام أو هيئة خاصة لمحاولات الغزالي العقلية وان كنا نعرف بعض البحوث أو على الأصح بعض المحاولات القصيرة أو الطويلة لجانب من جنبات هذا التفكير الغزالي ، الذي لا نستطيع معه الآن على الأقل أن نوجب أو أن نسلب فلسفة بعينها لهذا الرجل فنطلق الحكم فصلاً يعزل تراث الرجل في أحد مجالين : مجال التفكير الفلسفي المتسق في نفسه في وضع ميتافيزيقي يتعين فيه للرجل فلسفة وتصدق له دعوة فيلسوف ، أو مجال اللمحة النفسية الخاطفة والخطرة العقلية الومضة التي ترسم في مجموعها ، أو انتشارها ، رأياً يحل طارئة ، أو يؤيد قاعدة ، أو يبني قولة ما يجيء لصاحبه في نطاق المعرفة موضعاً بين

بالمفكرين والذين هم عندما يحكم ما تلقوا من أنواع المعرفة ويحدد بروز اطمئنة النفسية واستعدادها لهذا التلقي، وما ينشيء عن هذا من تلوين النظرة الى الحياة، مما يجعل المفكر منهم في موضع بين الفرد العادي وبين طبقة العالم المتخصص أو الفنان الممتاز أو الفيلسوف صاحب النظرة الشاملة للحياة والذي تتضمن نظرته بهذا الشمول المكان عموماً والزمان دواماً ... هذه التفرقة لازمة وعلى التخصيص إذا ما كان الحديث يتناول العقلية الاسلامية التي كثر الحديث عنها من هذه الناحية في هذا العصر وأخريات القرن الماضي

***

والحديث عن آراء الغزالي يتصل اتصالاً تاماً، أو يكاد، بالحديث عن ترجمة حياته، لأنه واحد من المفكرين الذين يكون تسلسل ترجماتهم هو بعينه تسلسل حياتهم الروحية، ولأن هذا الحديث سيعيننا على الكشف عن الرواسب التي كونت الأفكار الغزالية، كما يعيننا على تفهم موضع الرجل من معاصريه بل وموقفه من خصومه ويوضح حاصل رأيه وحاصل الرأي فيه.

وإذا كان هذا شأن ترجمة حياة الغزالي كان لا بد من عرض قصير يسير لحياته ....

وإذاً ففي عام (١٠٥٩ م — ٤٥٠ هـ) يولد الغزالي بطوس ويتوفى والده فيكفله صديق لأبيه متصوف يأخذه بتعاليم الفقه وغيره ولكن الغزالي الشاب يضيق بتعاليم الفقه في هذه الحدود الضيقة التي تدفعه الى إمام الحرمين في نيسابور يتعلم عليه «الكلام» ويدرس عليه المذاهب واختلاف اتجاهاتها كما يدرس المنطق والجدل مما يذيع في نفسه لوناً من ألوان الحيرة التي تنبعث في القلوب الخصبة والعقول الكبيرة حين تريد هذه القلوب وهذه العقول أن تقتنع وحين تريد أن تفلت من أخطاء الحيارى، وما في جبروت هذا الخطأ من استبداد بالأفكار ... ثم تأتي مرحلة يموت فيها إمام الحرمين فيتعرف الغزالي على نظام الملك الذي يعينه أستاذاً في المدرسة النظامية وينصرف الغزالي الى التدريس كما ينصرف الى الدراسة القوية النشيطة المنظمة التي توفرها له هدأة يسيرة من الحياة والتي لا بد منها لمن يشتغل بالمعارف المنظمة والعلوم الفلسفية. فيدرس الرجل مؤلفات الفارابي ونتاج الشيخ الرئيس ويؤلف ما شاء له التأليف ... ثم تأتي مرحلة يلح عليه فيها الشك إلحاحاً يقض هذا الهدوء بل هذا الاستقرار ويدفعه الى اليأس الحزين من قدرة العقل كوسيلة تُنال بها حقيقة الدين فيترك التدريس والدراسة ويخرج من بغداد خائفاً يترقب كأنما هذه الحيرة تتربص به أينما كان فهو شاك حائر خائف لا يعرف أين يذهب وكل الأرض وجهته... يجاهد نفسه ألواناً من المجاهدة ويتحمس لرياضتها ضروباً من التحمس فينطوي على نفسه انطواء يوشك أن يعزله في روحه عن عالم الشهادة: وإذا هو حيال هذا الكون المشهود لا يني ولا يوجب . . . فهو في دمشق وهو في القدس وهو في الاسكندرية نفسه بهذا يتعلق

بسبب من أسباب السماء غير العقل الذي ليس منهُ سبيلاً الى قرار اليقين واصلاح أمور الدين وهو أبداً متوق لأن يُكتَب في عداد المجاهدين وهو دائماً يرجو أن يكون ممن « يرسلهم الله على رأس كل مائة سنة من المصلحين . »

وهو ينتهي من هذا الى أن ينصب نفسه داعية من دواعي الاصلاح القائم على العمل والتفنيد فيؤلف كتاباً من أكبر كتبه يرجو به أن يعيد مجد الدين أو يرتق به ما خرقتهُ ألسنة الزنادقة والملحدين . هذا الكتاب هو كتاب « احياء علوم الدين » ثم هو يرى أن يعود الى نيسابور فيواصل الارشاد والدعوة والعبادة حتى يدركه الموت في طوس سنة ١١١١م سنة ٥٠٥ هـ فيقع في الميدان كأي بطل من أبطال الفكر المجاهدين فيخلع عليه المسلمون لقب « حجة الاسلام وزين الدين »

(موضع الغزالي من معاصريه) هذه ترجمة حياة الغزالي ثقفناها ما أمكن التثقيف الذي يوائم حياته الروحية بجانبها الزمنية والذي يبدو منها الرجل وهو يسير مع الحياة يصادف فقهاء يقفون من الفقه عند حد النصوص ومتكلمين يحاولون جاهدين في مزج الدين بالعقل أو قل يصبّون الايمان في صور عقلية يبدو عليها القلق والصنعة لأنهم فيما يحتمل أرادوا أن يصطنعوا لهذه المادة الروحية قوالب نظرية فتخطفوا وجوه المذاهب الفلسفية في غير حذق وتريث فجاءت شائهة ضاق بها الغزالي كما ضاق بها المسلمون زمناً ما ... ثم أيضاً غير هؤلاء وهؤلاء نجد في محيط الغزالي طائفة تتشدق بالرياضيات والطبيعيات وتأخذ بحظ من المنطق والفلسفة اليونانية ممثلة في القدر الهزيل من فلسفة افلاطون وأرسطو الذي أذاعهُ الفارابي وابن سينا

وهنالك أيضاً فرقة أو أكثر تهيء نفسها بأنواع من السلوك والمجاهدة على الرياضة الروحية في لون من الخفاء والتستر حيناً أو الفوضى والاباحة أحياناً رجاء أن تطمئن اطمئناناً من غيرها من طريق أسمى وأروع من العقل ، ويمثل هذه الطائفة معظم الفرق الصوفية

هذه أظهر التيارات التي كانت تجري في القرن الحادي عشر الميلادي وصاحبنا لا يكاد يتبين نفسه منها ولا يكاد يفاضل بينها على أنهُ يرى من حق نفسه عليه أن يدرس كل هذه الدراسات فيندفع اندفاعاً قوياً الى الدرس والتحصيل يتمثل في قوله « ..... أتهجم على كل مشكلة وأستكشف اسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ...... »

فهو اذاً يدرس دراسة العارف المريد لا تجلاً نفسه بعناء على طريقة المقلدين الذين يعتقدون ان الايمان تركة تورث ولا يتقيهق بالمنطق كالببغاوات ، ولا يتفلسف تجلاً شديداً وتفخيماً باسم أفلاطون الالهي وباسم أرسطاطاليس المعلم الاول ، انما هو يدرس هذا وذاك ليتبين موضع الحق عند كل طائفة فيتبنهُ ، أو محلاً للباطل فيحمل عليه وهو حين يخاصم طائفة يحاربها بسلاحها

ويحررها على نفسها بأدلة من نوع أدلتها (وسنبين هذا في موضعه من الحديث). أما هذه الطوائف فيدعوها بأصناف الطالبين وهي عنده أربعة أصناف

متكلمون يدعون أنهم أهل رأي ونظر، وباطنية يزعمون أنهم أصحاب التعليم المخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم، وفلاسفة يزعمون أنهم أهل منطق وبرهان، وصوفية يدعون أنهم خواص حضرة وأهل مشاهدة ومكاشفة ويقول «إن الحق لا يعدو هذه الاصناف الاربعة» وأخذ يدرس معارف كل طائفة دراسة مكنته من وسائل الخصام بل جعلت للخصومة في حياة العقلية العربية قيمة هامة. ولكن ما مدى الخصومة وما حدود هذا الخصام؟!

(الخصومة) . . . بل طريق الغزالي الى المعرفة وسبيله الى الحق كان يختلف اختلافاً بعيداً أو قريباً من هذه الطوائف ونظرتها الى اليقين الديني والسبل التي يتأدى بوساطتها على نحو ما فسره فيما بعد مما أدى الى انهُ تارةً يقف مناصراً لبعضها في ناحية من نواحي المعرفة وتارةً تراه منازعاً بل خصماً مرداً عنيداً لبعضها الآخر، مما جعل الخصومة تشتد تارةً وتفتر تارةً، ويفسر لنا هذا نظرة الغزالي الى قيمة العقل واقتداره على معرفة الحق وهو يرتب هذه الطوائف على قدر نظرتها الى العقل

أما قيمة العقل في نظر الغزالي فيكفي أن يضعه في موضع أدنى من مرتبة الذوق أو الاشراق الذي بدونه يصبح اليقين الديني ضرباً من الاستحالة، بل هو يشك في قيمة العقل ويوجه اليه سهماً اماهُ يصيب (عنده) العقل في المقتل وفي أعظم موضع يعتز فيه العقل بذاته ويطيئه ما كشفه من قوانين، هذه الناحية التي ينقدها صاحبنا هي المعارف الضرورية، ويخص منها قانون السببية فيقول بالنص «لعلَّ وراء إدراك العقل حاكماً آخر، اذا تجلى كذَّب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذَّب الحسَّ في حكمه، وعدم تجلي ذلك الادراك لا يدل على استحالته — المنقذ ص ٧٢)

ومن هذا يمكن توقع نظرته الى الطوائف السابقة (أصناف الطالبين) ومدى خصومته لكل منها:

فهو يرى ان المتكلمين كان غرضهم نصرة الدين والذب عنهُ بسلاح من البرهان والعقل وعجز هذا العقل عن السمو بالعقائد الدينية الى درجة اليقين ولكنهُ رغم خصومته لهم كان يشفق عليهم — أليسوا مسلمين!!

وهو أيضاً يقف للباطنية أصحاب الامام المعصوم فيدرس آراءهم ويؤلف في غرضها والرد عليها ويجوّد هذا العرض حتى يعاتبه أحد اصدقائه بأن هذا العرض يوقف الخصوم على ما غمض من مذهبهم في نظارهم، وطريقته في إبطال حججهم هي طريقة مألوفة توسم بطريقة «القائل» هو يزعم أن دعوى هؤلاء باطلة ضعيفة وان ظهرت قوية فهذه القوة ليست بالذات ولا من

الذات بل بالاضافة الى ضعف حجة خصومهم فهي قوة معتبرة وليست قوة حقيقية فيجري لهم هو خصماً أحد يعرف كيف يقهرهم ويدل على فساد نظرتهم الى معلم معصوم مزعوم فليس هناك معلم غائب ولا هنا دعاة ينتظرونه ، انما المعلم هو محمد ودستوره كامل من يوم أن نزل الله «اليوم أكملت لكم دينكم» وما يزال بهم حتى يشعر هو بالنصر ويقول في النهاية « فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم »

وهو مع المتصوفة يدرسهم ويدرس طريقتهم التي هي تصفية النفس وارهاف الذوق بالعمل حتى يحصل الحال فهو يدرس هذا ويعرضه ، ويعيب عليهم بعض سلوكهم ، ولكنه بعد يأخذ مبادىء السالمية والكرامية ويزيل عنها بعض الغموض ويوسع جنباتها حتى تصبح عند أهل السنة دعامة يمكن ان يقوم عليها صرح العلم في نظرهم ، هذا شأنه مع المتصوفة ومسالكهم . أما شأنه مع التصوف فله معه حال تستبين عليه الى أن تم جنبات الخصام . يعرض خصومته في أعلى صورها عند الفلاسفة وهم صنف من « أصناف الطالبين » ولكن موقفه منهم وموقفهم معه لم يكن من السهولة واليسر كما كان مع بقية « أصناف الطالبين » ، انما هنا الخصام يتسع اتساعاً قوياً حتى يكاد يلون أفكار الرجل جميعاً ، ويستغرق معظم تفكيره ، وهذه الفترة الخصبة من تفكير الغزالي حافز يستغرق الماضي من طرف كما يستغرق المستقبل من طرف ، فهو ينازع أفلاطون وأرسطو من قبل وينازعه ابن رشد من بعد ... وعندنا ان لهذا الخصام في جملته غرضاً واحداً له مظهران : فأما الغرض فهو أن يتزعم الغزالي حركة قوية ضد جملة المذاهب الفلسفية التي قامت في الشرق على أصول يونانية فيكسب بذلك نصراً للدين ويكتب في عداد المصلحين والابطال المجاهدين . أما أن الغرض أخذ مظهرين فذلك يتضح من أسلوبه في النضال ، ففي الناحية الأولى يدرس الغزالي المسائل الرئيسية التي يدور حولها حديث الفلاسفة عادة ويعرضها عرضاً علمياً رائعاً ، يدل على دقة الفهم لما يقرأ ، وقدرة العرض لما يفهم ، فأنت تقرأ في « مقاصد الفلاسفة » فكأنما تطالع لمؤلف في الجيل الحاضر فهو يعرض المنطقيات والطبيعيات والالهيات كأحسن ما يكون العرض ، ثم هو بعد ان ينتهي من هذا يشرع في تنفيذ الجزء الباقي أو المظهر الثاني لغرضه وهو مناهضة هؤلاء الفلاسفة بالنقد فيحاول ان يكشف عن تهافت حججهم وفساد أدلتهم في كتاب قيم هو « تهافت الفلاسفة » . وطريقته في ذلك طريقة لبقة حقاً فهو يصطنع لهم ما يصطنع القائد الماهر ، فيحمل سلاحاً من جنس أسلحتهم (المنطق) ويحصر موضع النزاع (1) ويقسم ميدانهم (طبيعيات ورياضيات والهيات ومنطقيات ويضيف في النقد السياسة والاخلاق)

(١) في عشرين نقطة كفرهم في بعضها وبدعهم في البعض الآخر في التهافت ثم عاد فلخص ما شغلوا به يرجع الى ... بن ... يجب تكفيرهم في ثلاث منها وتبديعهم في سبعة عشر النقطة .

ويتوزع — ان جازت الاستعارة — هذا الجيش على جناحين وقلب . اما الجناحان فهم طائفة الدهريين وطائفة الطبيعيين، وأما القلب فهم طائفة الالهيين والطائفة الأولى تنكر الله وتزعم ان الوجود موجود بالذات ومن الذات . والطائفة الاخرى لا تجعل للصانع الا مكاناً ضيقاً في فلسفتها فضلاً عن انها مجهدة البحث . وطائفة القلب مثال سقراط وأفلاطون وأرسطو « نمر من سابقيهم لأن موضوعهم هو بالالهيات وتلك حظ مشترك بين الكفر والالحاد ليس بالاضافة اليهم وحدهم بل ويتدرج منهم من تناول هذا الموضوع على طريقتهم . » في الالهيات أكثر أغاليط الفلاسفة ، فقد جاءوا فيها يزعم طريقتهم البرهانية التي يصطنعونها في المنطق والرياضيات وبنوا معرفتهم في هذا النوع من المعرفة على ضرب من التخمين والظن . فالجيش كله اذاً سواء منهم من في القلب ومن في الجناحين زنادقة ملاحدة .... فيحشد لهم من قلبه عواطف ومن عقله افكاراً ليرد عاديهم عن حوزة الدين ، ولكن العواطف ان تفعل في هؤلاء فأصبحوا لا ينفعلون وهم بهذه الوسيلة لا يرتدون ولكنه يستفيد من هذا السلاح كشارة تراجع يأمر بها المسلمين ان يرتدوا عن هذا الحصن حصن الفلسفة فيحرض المسلمين على مقاطعتها ويحذرهم ألواناً من التحذير وينشأ يصور لهم آفاتها في أبشع تصوير فهي قد تعدو على التوحيد من طريق مباشر او غير مباشر ، ويتدفق الرجل في التخويف والتحذير حتى يبلغ حداً من التصوير شائقاً حقاً ، يقتنع معه هو بتراجع الاسلاميين عن هذا الخطر فاذا هو اطمأن الى هذا وقال بسلاح القلب ما اراد ، اندفع بمفرده كالسيل يقاتل اعداء وخصوماً لا يعرف طريقة نزالهم وعدتها عامة المسلمين فينفرد لهم هو واحداً في ميدان العقل فيصاولهم بالمنطق فيبني ادلته على قانون التناقض ويفسد عليهم رأيهم في قانون السببية كما اسلفنا ويأخذهم من طريقة اخرى هي طريقة الالزام فيقول « فألزمهم تارة مذهب المعتزلة واخرى مذهب الكرامية ...... ولا انتهض ذاباً عن مذهب مخصوص بل اجعل جميع الفرق إلباً واحداً عليهم فان سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل ، وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين ، فلنتظاهر عليهم فعند الشدائد تذهب الأحقاد » التهافت ص١٣ — ١٤ : كما ينهض لرد الالهيات من طريق لا يقل حصافة عن سابقه فهو لا يدخل لهم « الا دخول مطالب منكر لا دخول مدع مثبت » وهو يلجأ الى هذه الطريقة فيما يظهر لغرضين : لان ذلك المبدأ يجري مع اصل من اصول الاسلام يقول « البينة على من ادعى » . والغرض الآخر يكشف فيه وجه الطرافة ذلك انه — فيما يبدو — يحرص على هذا المبدأ يأخذ منه ستاراً يتقي من ورائه حذر ان يخوض مع الفلاسفة مسائل قد يتقاصر عليه حلها ومن ناحية أخرى قد يكشف الحديث فيها عن خبرته ومدى معرفته بالفلسفة وخصوصاً مسائلها الدقيقة ... فلم لا يأتي من اقصر الطرق فيجادلهم في المسائل المعروفة ويعارض مسائلهم باشكالات مثلها ويلزمهم على أصولهم

الزامات لا يقبلها العقل ويوقفهم منه موقف الاحراج . وكتاب « تهافت الفلاسفة » ليس الا مجالاً لهذا النزاع بينه وبين هؤلاء « الملاحدة » ويمثل الرجل المجهد فيتصور ان هذا الجيش قد اكل قلبه الجناحين ثم بعد ، أكل هذا القلب بعضه بعضاً . ويظهر هذه الصورة وهذا الأمر تحوى هذا النص : « الصنف الثالث : الالهيون : وهم المتأخرون منهم : سقراط وهو استاذ افلاطون وافلاطون استاذ ارسطاطاليس ..... وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الاولين من الدهرية والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم . « وكفى الله المؤمنين القتال » بتقاتلهم ثم رد ارسطاطاليس على افلاطون وسقراط ومن كان قبله من الالهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم . الا انه استبقى ايضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابي وغيرهما » (المنقذ ٨٥، ٨٦) . . . والى هنا ينتهي بنا الحديث على أن نكشف صورتين يتضح بهما مدى تفاعل هذا الجهد العنيف ومبلغ اثره وتأثره في المحيط والوسط كما — سيعيننا على فهم الصورة الباقية لحياة الرجل الروحية ، وليست هاتان الصورتان الا الصورة المنطقية للخصومة والصورة النفسية لها

(١ — الصورة المنطقية) ان النظرة العقلية المتتبعة للذهن الاسلامي في مراحل نموه وترقيه وملاحظة الخصومة في وضعها المتجرد بين الخصم والخصوم وانتقال الخصم في ميادين الخصام وعلى الاصح ترقيه من مجال الى مجال فوقه لتظهر أن التطور المنطقي للفهم النوعي للتفكير الاسلامي هو التطور المنطقي للخصومة وهو أخيراً التطور الفردي لتفكير الغزالي ، فالعقلية الاسلامية تقف عند المسلمات في طورها الأول ممثلة في النصوص الدينية من قرآن وحديث ، وهي بعد تريد أن تمس العقل من بعيد فيكون لها ذلك على يد فقيه كبير هو ابو حنيفة النعمان الذي فتح بالقياس سرباً يصل منه الدين الى العقل حتى يكاد يوازيه عند المتكلمين ثم بعد يريد الذهن الديني أن يصعد عند متفلسفة الاسلام الى موضع يكون أو ينبغي ان يكون له عنده قواعد اعتقادية مجردة منضبطة بضوابط منطقية .. هذا تصور الذهن الاسلامي الى القرن الخامس الهجري ، ويوازي هذا تطور الخصومة . وليست فترات النضال الا قفزات الانتقال من مرحلة الى مرحلة حتى بلغ النضال مرحلته الاخيرة في النضال الفلسفي . وواضح من إظهار الخصومة للعقل الفردي الغزالي من محاذاة هذا العقل الفرد وملاحقته للصور والأطوار السابقة والتي استبقينا عندها الذهن الغزالي في مرحلته هذه عند آخر المراحل للذهن النوعي الاسلامي والتي استبقينا عندها الغزالي يدرس الفلسفة ويخاصم الفلاسفة ويعرض ويعارض مشكلاتهم — هذه هي الصورة المنطقية التي تتضح بما يوازيها من الصورة النفسية الآتية

(الصورة النفسية) لكن هذه الصورة النفسية عسيرة لانها دقيقة ولأنها لا تستلزم من الباحث فقط الملاحظة المباشرة لمادة اللفظ وقواعد المعنى بل تلزمه التمرس بالحياة الاسلامية من ناحية ومعاشرة الغزالي إن صح هذا التعبير فيكسب بذلك الفة ، يفهم منها مكنونات القدس ومضمرات الحديث ومراميه . . . ويكاد دارس هذه الناحية لا يتفقون عند صفة نفسية واحدة للروح الجمعي الاسلامي وان كانوا قد وقفوا عند بعض الصفات للنفسية الغزالية

ونستطيع أن نقول ان الذي يراقب النفس الغزالية عن كثب يلحظ صوراً روحية قد تخالف في الظاهر ما يعرضه الرجل مُنْضبطاً في صور وقوالب منطقية ولكنها في الحق تلتقي جميعها عند أصل واحد بعيد، هذه الصور الروحية التي تستجيب الواحدة للاخرى استجابة التأثر للمؤثر لا الاستجابة المحتومة بالقيد العقلي بين النتيجة والمقدمة ، والفرق واضح بين منطق القلب ومنطق العقل

هذه الصور التي تستجيب الواحدة للاخرى نلاحظ بينها وبين الطموح والوثوق القلبي لا (العقلي) نسبة وعلاقة . ومرد هذا طغيان السمة الشعورية على السمة العقلية وانتشار المجال الذاتي وتقلص النظر الموضوعي مما لا نكاد نجد له شذوذاً في أي من الظواهر الجمعية الاسلامية بل لا نكاد نسمع له نشوزاً عند أية عبقرية اسلامية . والعبقرية الغزالية عبقرية تجمعت لها بما هي به عبقرية نداءات الروح الاسلامي الموزعة في حينه وصدرت عنه هذه النداءات كلها في صوت موحد في نفس متفرد ولكنه انسجام للروح الجمعي واتساق للفكرة الاسلامية ، وليست ألوان التحمس التي كانت تفلت من يده أحياناً في ميدان المعقولات فيعرض بالفلاسفة في مناسبة وغير مناسبة ، الا أطراف الطبيعة الذاتية والشعورية في هذه النفس الفردية تصلها بأصولها الكامنة أطرافها الأخرى في طبيعة العقل الجمعي الاسلامي

ومتفرد هنا هذه الموازاة بين العقل الجمعي والعقل الفردي لنكمل الصورة الأخيرة من نفس الغزالي والتي يبلغ بنماها تمام الصور الروحية له اذ هذه الصورة تضع نفسها فوق مرحلة النضال الفلسفي وتتوجها

(أكمل الصور) والوثبة التي تلي هذا النضال الفلسفي او الصورة التي تعلو عليه والتي نجدها عنده هي حالة الشك . والحق ان هذه المرحلة لا تزال (عقلاً) مع سمو منزلتها فان علة هذه الحال لا تقتصر فقط تمام الحياة الغزالية انما قد تنفض بعض الغبار عن حواشي التفكير الاسلامي . . . ويرجح في نظرنا من بين ما يمكن افتراضه للتعرف في هذا المجال العلمي على السبب الذي يشرح هذه الحال ، فرض ان الغزالي كان عليه بعد الوقوف على الاتجاهات الفلسفية وفهمها نوعاً من الفهم ومعارضتها نوعاً من المعارضة ، إما ان يعمق نفسه ويترك عقله حراً متمادياً في

البحث يكشف عن طرة أصيلة تعمل عملها في الحياة وتأبى ان تظل الفكر الفلسفي ... نفسه الى طمأنينة الدين وسلامته

أما التعمق الميتافيزيقي الذي قوامه النظر المجرد والعقل الحر المتمادي فلم يتيسر للغزالي ، بل لم يتيسر لطبيعة المحيط والوسط ونحن لا نشك في ان الرجل له علم بالفلسفة واحاطة ، ولكن طبيعة علم الفلسفة شيء وطبيعة الفيلسوف شيء آخر . عبقرية الفيلسوف قائمة على ضرب من النظر العقلي الحر المتجرد العميق الهادىء المتصل : اما عبقرية الغزالي فكانت عبقرية ونابة : عبقرية دينية تحس فيها حرارة القلب وتوهج الايمان كما تبدو فيها ومضات الالهام . فهذه طبيعة العبقرية الفلسفية وتلك طبيعة العبقرية الدينية ، وكان على عبقرية القلب ان تلاقي عبقرية العقل او قل كان على العبقرية العربية ان تلاقي العبقرية اليونانية ، وكان من المحتوم ان يقع التصادم بين الروح الديني والعقل الميتافيزيقي ، ووقفة الشك ليست الا تعليق الحكم وهنا تبلغ العقلية الغزالية الى أجلى صورها النسبية

حاصل الرأي

واذ تنتهي المفاضلة بين حرية العقل في الجو الميتافيزيقي وبين الاستسلام والطمأنينة في ظل اليقين الديني ، تنتهي حالة الشك ، ويضع ما علق من حكم ، بما رجح عنده من الموضوع الشعوري على الموضوع العقلي ، بل موضوع انصب على العقل ورجحان الذوق على المنطق

بل ربما رجحت عنده المفاضلة في وضعها النفسي بين الطمأنينة في ظل الاستسلام القلبي والتعلق المذهبي واليقين الديني ، على الاغتراب العقلي في حرية التفكير الميتافيزيقي

وكان نتيجة هذا لوناً من ألوان التصوف ، فقضى الرجل بذلك على آرائه ان تمشي في ظل الاجيال وهي خدمة للدين واللاهوت . وأبت طبيعة المحيط والوسط بل طبيعة النوع الأصيلة أن تصرف هذا الجهد النفسي في تيار ميتافيزيقي به من كفاية الدرجة ما كان يكشف عن غاية من غايات الحياة المطلقة فيسعد الانسان وهو على الأرض وفي هذا الوجود المشاهد ، بل اقتضت ارادة طبيعة الوسط السابقة أن يسعد الغزالي الانسان في السماء وفي ذلك الوجود الغائب

وهذه خصائص العبقرية الدينية التي توفرت للغزالي في مشتملاتها بل في سمتها العالي ، والذي استطاع بها أن يلفت اليه العالم بقوة وأن ينال التقدير والاعجاب . إن الناحيتين الفكرية والقلبية وامتزاج الحالتين امتزاجاً يجعله على رأس المتصوفين العارفين المريدين كما يضعه هذا الامتزاج في الصف الأول من المفكرين : فهو صوفي عارف ، ومفكر قوي ، ولكنه ليس فيلسوفاً طرداً لمعنى الفيلسوف على ما نبهنا عليه من حدود